الباب الخامس

في انقسامِهِ باعتبار محلّه

الصبرُ ضربان: ضرب بدني، وضرب نفساني. وكلٌّ منهما نوعان: اختياري واضطراري فهذه أربعة أقسام.

الأول: البدني الاختياري؛ كتعاطي الأعمال الشاقة على البدن اختياراً وإرادةً.

الثاني: البدني الاضطراري؛ كالصبر على ألم الضرب والمرض والجراحات والبرد والحر وغير ذلك.

الثالث: النفساني الاختياري؛ كصبر النفس على فعل مالا يحسن فعله شرعاً ولا عقلاً.

الرابع: النفساني الاضطراري؛ كصبر النفس عن محبوبها قهراً إذا حيل بينها وبينه.

فإذا عرفت هذه الأقسام، فهي مختصة بنوع الإنسان دون البهائم ومشاركة للبهائم في نوعين منها وهما صبر البدن والنفس الاضطراريين، وقد يكون بعضها أقوى صبراً من الإنسان وإنما يتميز الإنسان عنها بالنوعين الاختياريين، وكثير من الناس تكون قوة صبره في النوع الذي يشارك فيه البهائم لا في النوع الذي يخص الإنسان، فيعدّ صابراً وليس من الصابرين.

فإن قيل: هل يشارك الإنس والجن في هذا الصبر؟ قيل: نعم هذا من لوازم التكليف وهو مظنة الأمر والنهي والجن مكلفون بالصبر على الأوامر والصبر عن النواهي كما كلفنا نحن بذلك.

فإن قيل: فهل هم مكلفون على الوجه الذي كلفنا نحن به، أم على وجه اخر قيل: ما كان من لوازم النفوس كالحب والبغض والإيمان، والتصديق، والموالاة، والمعاداة فنحن وهم مستوون فيه، وما كان من لوازم الأبدان؛ كغسل الجنابة والأعضاء في الوضوء والاستنجاء والختان وغسل الحيض ونحو ذلك، فلا تجب مساواتهم لنا في تكلفه وأن تعلق ذلك بهم على وجه يناسب خلقتهم وحياتهم.

فإن قيل: فهل تشاركنا الملائكة في شيء من أقسام الصبر؟ قيل: الملائكة لم يبتلوا بهوى يحارب عقولهم ومعارفهم بل العبادة والطاعة لهم كالنفس لنا فلا يتصور في حقهم الصبر الذي حقيقته ثبات باعث الدين والعقل في مقابلة باعث الشهوة والهوى وإن كان لهم صبر يليق بهم وهو ثباتهم وإقامتهم على ما خلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع.

فالإنسان منا إذا غلب صبره باعث الهوى والشهوة التحق بالملائكة وإنْ غلب باعث الهوى والشهوة صبره التحق بالشياطين وإن غلب باعث طبعه من الأكل والشرب والجِماع صبره التحق بالبهائم.

قال قتادة: خلق الله سبحانه الملائكة عقولاً بلا شهوات، وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلاً وشهوة؛ فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم ولما خلق الإنسان في ابتداء أمره ناقصاً لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه فصبره في هذه الحالة بمنزلة صبر البهائم، وليس له قبل تمييزه قوة صبر الاختيار، فإذا ظهرت شهوة اللعب استعد لقوة الصبر الاختياري على ضعفها فيه، فإذا تعلقت به شهوة النكاح ظهرت فيه قوة الصبر، وإذا تحرك سلطان العقل وقوي استعان بجيش الصبر، ولكن هذا السلطان وجنده لا يستقلان بمقاومة سلطان الهوى وجنده فإن إشراق نور الهداية يلوح عليه عند أول سن التمييز وينمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهوره وكلها هداية قاصرة غير مستقلة بإدراك مصالح الآخرة ومضارها، بل غايتها تعلقها ببعض مصالح الدنيا

ومفاسدها، فإذا طلعت عليه شمس النبوة والرسالة وأشرق عليه نورها رأى في ضوئها تفاصيل مصالح الدارين ومفاسدهما فتلمح العواقب ولبس لأمة الحرب وأخذ أنواع الأسلحة ووقع في حومة الحرب بين داعي الطبع والهوى وداعي العقل والهدى، والمنصور مَن نصره الله، والمخذول من خذله ولا تضع الحرب أوزارها حتى ينزل في إحدى المنزلتين ويصير إلى ما خُلق له من الدارين.

□

obeikandl.com